International Journal on
Humanities and Social Sciences
ISSN: 2415 – 4822 www.ijohss.com

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
العدد السادس نوفمبر 2018

العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين والمماليك في مصر والشام

الدكتور
يعرب نبهان
باحث وأكاديمي

الخلاصة

على الرغم من المعاناة الكبيرة التي ألمت في المجتمع العربي بمصر والشام في عصر السيطرة الأيوبية والمملوكية، فإن العلوم على كافة أنواعها ومستوياتها بقيت محافظة على وتيرة معينة لم تتعد الحد الأدنى طوال هذه الفترة المظلمة. ولابد أن ذلك يعود إلى وعي عربي كبير، تجسد في اهتمام العرب بالعلوم قدر المستطاع بعد أن فشلوا في مسألة طرد الأيوبيين والمماليك من مواقع الحكم والقيادة، التي تمسكوا بها بقوة بحجة واهية، تجلت بالحرص على استمرارية الدين الإسلامي قوياً ومعافى، وقد دلت الأحداث والوقائع أن تمسكهم بالسلطة وقيادة الدولة، لم يكن في حال من الأحوال إلا من أجل تحقيق طموحاتهم في السيطرة والاستئثار بخيرات البلاد، التي نهبت بشكل فظيع قلّ نظيره في تاريخ العالم. إذا كانت قد غابت شمس العرب على صعيد الحكم في هذه الفترة، فإنها أشرقت إلى حدٍ ما على صعيد العلم والحضارة والفكر والثقافة، وكأن الأمر كان قد خُطط له بعناية، فخصص العلم للعرب وخصصت السياسة والقيادة للغرباء من أيوبيين ومماليك، الذين حرصوا على الدوام على مسألة إبعاد العرب عن المراكز السياسية والقيادية، لأنهم كانوا يعرفون تماماً أنهم غرباء ومغتصبون للحق العربي في الحكم والقيادة، كما كانوا يعرفون مدى التذمر العربي من حكمهم وبخاصة في صفوف أهل الوعي من العرب.

مقدمة

ازدهرت في عصر السيطرة الأيوبية والمملوكية العلوم النظرية على حساب العلوم التطبيقية من طب وصيدلة وهندسة وفلك وزراعة وطبيعة وما يتصل بذلك. ورغم هذا الإزدهار للعلوم النظرية، فإنها لم تكن جيدة من حيث نوعها وقيمتها الفكرية، فقد جاءت على هيئة تجميعية من مصادر سابقة، وغابت منها روح النقد والإبداع والتجديد، فكانت تعبيراً صادقاً عن ذلك العنصر الذي اتسم بالهزيمة على صعيد الإبتكار والجدة والحضارة والإنسانية، فقد كان من أشد عصور العرب ظلاماً في العصور الوسطى، ولم يتفوق عليه في ميدان الهزيمة الحضارية سوى العصر العثماني الذي جاء على أنقاضه ودام فترة أربعة قرون متتالية. وسندرس هذه العلوم بشكل مختصر وتحت عنوانين منفصلين، هما العلوم النظرية والعلوم التطبيقية.

1 ـ العلوم النظرية

يقصد بهذه العلوم على وجه الدقة، العلوم اللغوية والعلوم الدينية والعلوم الإجتماعية. وقد نالت من اهتمام الناس أضعافاً مضاعفة مما نالته العلوم التطبيقية، التي بدونها لا يحدث التقدم والتطور في أي مجتمع من المجتمعات البشرية على الإطلاق، ذلك لأنها هي التي تنتقل بالإنسان من مرحلة التسليم إلى الطبيعة بقسوتها وظلمها وكوارثها إلى مرحلة تطويع هذه الطبيعة لمصلحة الإنسان وتحسين معيشته على الدوام. بينما لا تشغل العلوم النظرية هذه الأهمية في تاريخ الإنسانية، على الرغم من أهميتها في مجالات التهذيب والتربية والتحفيز للإنطلاق باتجاه المواقف الإيجابية والضرورية للإنسان في حياته العامة. وهذه العلوم هي كالتالي:

العلوم اللغوية

وهي علوم اللغة العربية بكافة تفرعاتها وأغراضها واختصاصاتها، كالنحو والصرف، والأدب من شعر ونثر، والبلاغة، وكذلك الشروح العامة والخاصة لمعضلات هذه الموضوعات. وقد نالت هذه الموضوعات اهتمام مجموعة كبيرة من المعتنين بالشؤون الثقافية والمعرفية، ومن شدة اهتمام بعضهم فقد برزت شخصيات عديدة، نالت شهرة عريضة في دنيا العصور الوسطى المتأخرة، ساعد على ذلك وجود العديد من المدارس في مصر والشام، التي بنيت لتكون مراكزاً للتعليم المتعمق في عدد من الإختصاصات على غرار ما يجري في بعض كليات الجامعة اليوم. وقد بدأت هذه المدارس تظهر منذ ظهور وبداية السيطرة الأيوبية، وتطورت على صعيد الكم والكيف والإختصاص في عصر السيطرة المملوكية. وتركزت هذه المدارس بشكل خاص بمدينة القاهرة ودمشق وحلب والإسكندرية والقدس، ونظام استحداث المدارس في هذه المدن جاء تقليداً لما حدث من قبل في بغداد، التي عرفت نظام المدارس قبل أية مدينة مشرقية أخرى وكذلك مغربية، فقد أنشئت المدرسة النظامية في فترة السيطرة السلجوقية في هذه المدينة[1].

(1) حسين أمين ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص 222 وما بعدها.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المدارس في بداية إنشائها، كانت من أجل تدريس العلوم الدينية في مختلف أشكالها وأنواعها، وهو أمر كان الحكام يرجون من ورائه نيل الثواب عند الله في الآخرة، لكن ذلك تطور مع الأيام فأصبحت تدرس مختلف العلوم النظرية وأحياناً التطبيقية. فقد ابتدأت بتدريس العلوم الدينية على المذاهب الأربعة. وكان القائمون على المدرسة يحرصون على تعيين أشهر العلماء في ميدان علومهم، حرصاً منهم على سمعة المدرسة ومستقبلها بشكل عام. وكان لكل عالم معتمد في أية مدرسة من المدارس معاون يسمى المعيد، كانت مهمته الرئيسة مساعدة الطلبة في إفهام الطلبة ما يغيب فهمهم عنه في المسألة التي كان المدرس يشرحها لهم في المدرسة(2).

وكانت جميع المدارس تزود بالمصادر المختلفة، التي يعتمد عليها الأساتذة والتلامذة على حدٍ سواء، وكانت هذه المصادر توضع في مكتبات خاصة لها مرتبون مختصون على غرار ما يجري في المكتبات الحالية، باستثناء التقانات التي دخلت مؤخراً على هذه المكتبات. وعُرف هؤلاء بأسماء مختلفة مثل الخازن والأمين والناسخ والمناول والمجلد وما إلى ذلك.

من جهة أخرى فقد كان المهتمون بإنشاء المدارس، يبحثون قبل إنشاء مدارسهم عن إيجاد مصدر مالي للصرف على مدارسهم أساتذة وطلاباً وقائمين بالخدمة العامة، وكثيراً ما تجسد هذا المصدر في الفترة المملوكية والأيوبية من قبل الأوقاف، التي كانت على هيئة حوانيت وأراضي زراعية أو حمامات أو مؤسسات تجارية، فكل ما كانت تنتجه هذه الأوقات يرسل إلى المدرسة المخصص لها، وكانت إنتاجات الأوقاف غير ثابتة بسبب خضوعها للتقلبات العامة في الزراعة أو في التجارة، فكانت تنقص في بعض الأحيان وتزيد في بعض الأحيان الأخرى، وهذا ما انعكس على حياة العاملين في المدرسة وكذلك المتعلمين، الذين كانوا يخضعون إلى نظام يشبه إلى حدٍ كبير النظام الذي تخضع له المدارس الداخلية في عصرنا(3).

ففي ميدان الأدب في هذا العصر، يمكن أن نقول أنه تجسد بشكل حقيقي في قصائد شعرية كثيرة، قالها عدد لا بأس به من الشعراء، وكذلك في كتابات نثرية متفرقة. فمن شعراء هذا العصر يمكن أن نذكر الشاعر الصاحب شرف الدين الأنصاري المتوفى سنة 662هـ/1264م، الذي تميز بعدد من ضروب الشعر، كالمدح الذي شمل إضافة إلى بعض الشخصيات السياسية، بعض المعارك المظفرة، والغزل والنسيب، والزهد الذي لم يكن كثيراً في شعره(4) والشاعر التلعفري محمد بن يوسف الشيباني المتوفى سنة 675هـ/1277م. وقد تركز شعره على الوصف والطبيعة والخمريات التي عرفت بالخمريات التلعفرية. والشاعر البوصبري محمد بن سعيد الصنهاجي المغربي المتوفى سنة 697هـ/1296م، وهو من المغاربة نزلاء مصر في القرن السابع الهجري، وقد اشتهر بالوصف والمدائح النبوية، وبخاصة قصيدته البردة التي رفعت من شأنه كثيراً(5). والشاعر عفيف الدين التلمساني المتوفى بدمشق سنة 690هـ/1291م، وقد اهتم بشعر التصوف في المقام الأول، على الرغم من اهتمامه بوصف الطبيعة. وكان في

(2) المقريزي ـ المواعظ والإعتبار ص 374 ـ السيوطي حسن المحاضرة ج2 ص 157.
(3) ابن جبير ـ الرحلة طبعة بيروت ص 27.
(4) الكتبي ـ فوات الوفيات ج1 ص 365.
(5) الكتبي ـ فوات الوفيات ج2 ص 256 وما بعدها.

شعره التصوفي هذا يظهر ذلك المبدأ الذي حفظه عن أستاذه ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود، ذلك لأن التلمساني عُدَّ في نظر الكثيرين من القدماء والمحدثين من أخلص التلاميذ، الذين تتلمذوا على يد ابن عربي، وكان بمثابة قناة إعلامية لمذهبة في وحدة الوجود(6). والشاعر الشاب الظريف المتوفى بدمشق سنة 688هـ/1289م، وهو ابن العفيف التلمساني سابق الذكر، ولقبوه بالظريف لجماله ورشاقته ووسامته ومرونته في التصرف مع الناس وخفة روحه وكثرة مزاحه وابتعاده عن مواطن التعقيد والغضب وما إلى ذلك من أمور مشابهة. وقد تأثر بأبيه كثيراً من حيث ثقافته وعلمه، لكنه أكثر من الشعر في ميدان المدح والغزل والخمريات وما إلى ذلك(7). والشاعر صفي الدين الحلي المتوفى سنة 750هـ/1349م، الذي اهتم بشعر المدائح والإخوانيات، والمدائح النبوية، والفخر والحماسة، والمراثي والتعازي، والنسيب والغزل والتشبيب، والخمريات، وهذا ما جعله من كبار شعراء العصر المملوكي. والشاعر ابن نباتة المصري الذي لقب بأمير شعراء المشرق المتوفى سنة 768هـ/1366م، وقد اقتصر في شعره على موضوعات المدح ولا سيما المدائح النبوية ومدائح الحكام من أيوبيين ومماليك، ومدائح لأصدقائه وإخوانه من قضاة وعلماء كبار مما جعل النقاد يسمونها بالمدائح الأخوانية، كما اهتم بشعر الرثاء ولا سيما رثاء أولاده الذين رثاهم بمرارة، هذا بالإضافة إلى رثاء أصدقائه وبعض جيرانه، وله شعر في الغزل والوصف وبعض الخمريات الغنائية وبعض الموشحات(8).

إلى جانب ما أنتجه هؤلاء الشعراء من شعر متعدد الأغراض، فقد اشتهرت في هذا العصر موسوعات عديدة، ضمت العديد من الموضوعات التي كتبت على هيئة نثرية أدبية بصورة لم تظهر في أي من العصور السابقة. نذكر من هذه الموسوعات على سبيل المثال، موسوعة ابن منظور (لسان العرب)، وهي موسوعة لغوية ضخمة جمع فيها بين ضروب أدبية متعددة، وبلغت مواد هذه الموسوعة ثمانين ألف مادة(9).

وموسوعة نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب النويري، التي ضمت العديد من العلوم النظرية والتطبيقية، صاغها بأسلوب أدبي جميل يمتاز بسهولته وقربه من فهم القارئ(10). وموسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، وقد تميزت هذه الموسوعة بالشمول والإتساع، فقد احتوت على معظم العلوم الإنسانية(11). وموسوعة صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأحمد بن علي القلقشندي، وهي من أكبر موسوعات العصر المملوكي، ومن أكثرها أصالة في ميدان الأدب(12).

وبالجملة فقد حافظت هذه الموسوعات على جزء كبير من تراث العرب، الذي تهدد بشكل كبير في العصرين المملوكي والعثماني، ولا يستبعد أن يكون الأمر مقصوداً من قبل أصحاب هذه الموسوعات، إنطلاقاً من وفائهم لعروبتهم وإخلاصهم لأمتهم في وقت أُبعد العرب عن الحكم وعن صنع القرار السياسي.

(6) انظر عن ذلك كتابنا ـ الأندلسيون في بلاد الشام طبعة دار طلاس دمشق 1989.
(7) انظر عنه كتابنا ـ الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام.
(8) الموسوعة الإسلامية ج1 ص 288 وما بعدها.
(9) مقدمة لسان العرب ج1 ص 8 وما بعدها.
(10) السيوطي ـ حسن المحاضرة ج1 ص 556 ـ الأعلام للزركلي ج1 ص 158.
(11) ابن فضل الله العمري ـ مالك الأبصار ج1 ص 31.
(12) كراتشكوفسكي ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي ج1 ص 420.

أما الفرع الآخر من علوم اللغة العربية فهو النحو، الذي حظي باهتمام بالغ في هذا العصر من قبل الكثيرين، وكانت شهرة بعضهم تعود إليه في المقام الأول. ولشدة هذا الإهتمام فقد توصل بعضهم إلى إبتكار طرق ومؤلفات، هدفت إلى تسهيل فهمه وحفظه من قبل الطلبة والمهتمين. وهنا لا يمكن أن نستعرض كل علماء النحو في هذه الفترة لكثرتهم وغزارة مؤلفاتهم، الأمر الذي يجعلنا نقتصر على أشهرهم حتى اليوم. من هؤلاء المشاهير النحوي يحيى بن عبد المعطي الزواوي المشهور بابن معطي المتوفى بالقاهرة سنة 628هـ/1233م. وهو من المبدعين في هذا العلم، وقد تجلى إبداعه في مؤلفه (الألفية) التي تُعد الأولى من نوعها في ميدان النحو. لذلك نرى أنها انتشرت في المشرق العربي، وأقبل المدرسون على اعتمادها في التدريس، كما شرحها كثيرون خلال هذا العصر[13].

أما النحوي الشهير في هذه الفترة فهو محمد بن عبدالله جمال الدين المعروف بابن مالك النحوي المتوفى بدمشق سنة 672هـ/1274م، الذي عمت شهرته الشرق والغرب، وبرز كمؤلف بارع في ميدان النحو، وكأستاذ لا يجارى، وكرئيس لمشيخة النحو في واحدة من أكبر مدارس دمشق في العصور الوسطى، وهي المدرسة العادلية. فقد ألف الكثير من الكتب النحوية، من أحسنها كتاب (الخلاصة) الذي يُعرف أيضاً بالألفية، ويحتوي على خلاصة منتقاة يبين فيها المقاصد والأهداف من علم النحو. وله كتب أخرى مثل الكافية الشافية، ولامية الأفعال، والمقدمة الأسدية، وعدة اللافظ وعمدة الحافظ، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد إلى غير ذلك[14]. وعُدّ ابن مالك أحد أكبر النحويين، الذين كادوا ينازعون سيبويه شهرته، فقدم من خلال مصنفاته التي ذكرنا بعضها خدمة جليلة خالدة لعلم النحو، كما عُدّ من جهة ثانية صاحب مدرسة نحوية كبيرة، كانت ذات أهمية عظيمة في هذه الفترة. فقد قام كثيرون بشرح مؤلفاته بعد وفاته، وكأنها وضعت حداً للإبداع والتجديد، فلم يتمكن النحويون أن يتجاوزوا هذا الحد. ومن الذين شرحوا مؤلفات ابن مالك النحوي، نذكر على سبيل المثال الشهاب الشاغوري، الذي قام بشرح كتاب (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد)، لكنه لم يتمه فأكمله فيما بعد صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، وشرحه العلامة أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، والعلامة جمال الدين عبدالله بن يوسف النحوي في عدة مجلدات وسماه (التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل) [15].

وقام بشرح كتابه (الكافية الشافية) عدد من العلماء منهم، محمد بن علي النقاش المصري، وذيل عليه محمود بن محمد الحموي بخمسمائة بيت سماها (وسيلة الإصابة). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على المستوى الرفيع والمتقدم، الذي بلغه ابن مالك النحوي، وربما لم تعرف بلاد الشام نحوياً خلال العصور الوسطى في مستوى ابن مالك على كافة المستويات.

وفي مدينة القاهرة اشتهر نحوي آخر، ربما يتساوى إلى حدٍ ما مع النحوي الفذ ابن مالك النحوي في ناحية واحدة هي المعرفة الواسعة بعلم النحو، وكذلك الخدمات التي قدمها في هذا المضمار، وهو محمد بن يوسف أثير الدين أبو حيان الغرناطي القاهري المتوفى سنة 745هـ/1345م. لقد ترك أبو حيان إرثاً نحوياً بالغ الأهمية، لكنه لم يصل إلى

(13) اليافعي المكي ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج 4 ط2 بيروت 1970 ص 66 ـ ابن خلكان وفيات الأعيان ـ ج6 ص 197.
(14) الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج3 ص 359 ـ دائرة المعارف الإسلامية مجلد 1 ص 273.
(15) حاجي خليفة ـ كشف الظنون مجلد 1 ص 40 وما بعدها.

درجة ابن مالك ولا سيما في ميدان الإبتكار[16]. وتتجلى مكانة أثير الدين أبي حيان من خلال قصيدة قالها الصفدي في رثائه منها:

مات أثير الدين شيخ الورى فاستعر البارق واستعبرا
والنحو قد سار الردى نحوه والصرف للتصريف قد غيرا[17]

2- العلوم الإجتماعية

وتضم هذه العلوم العديد من الفروع المستقلة، مثل التاريخ والجغرافية والفلسفة وعلم الإجتماع. وكان التركيز على التاريخ بشكل خاص على حساب الفلسفة والجغرافيا، التي كانت من العلوم المتأخرة في هذا العصر.

آ- التاريخ

كان التاريخ من الموضوعات التي استقطبت اهتمام عدد كبير من العلماء الكبار في العصر الأيوبي والمملوكي موضوع هذا البحث. ولا يوجد تفسير لذلك سوى أن التاريخ في العصور الوسطى، كان يلقى عناية فائقة من الحكام فشجعوا المؤلفين وأثنوا على جهودهم في هذا الميدان، ذلك لأن الحكام كانوا يحبون دوماً أن يكتب التاريخ في حياتهم، ليحوزوا على مكانة مقبولة في صفحاته. ولابد هنا من أن نقتصر على أهم المؤلفين في هذا المجال، ذلك لأن الحديث عن الجميع من الأمور المستحيلة هنا بسبب كثرتهم وكثرة مؤلفاتهم. ويمكن أن ندرسهم من خلال منهجية مؤلفاتهم ونبدأ بأصحاب التراجم، الذين كتبوا مؤلفاتهم لتكون تراجم مختلفة للعلماء والسياسيين والأدباء ورجال الدين إلى غير ذلك. فأهم من كتب في هذا المجال في هذه الفترة، هو علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة 647هـ/1249م، الذي ألف كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، فضمنه تراجم الأطباء والفلاسفة من العرب وغير العرب منذ أقدم العصور حتى زمانه، وهو مرتب على حروف المعجم، ويُعد من الكتب الفريدة في هذا الموضوع[18]. وكتب أحمد بن محمد المعروف بابن خلكان كتاباً سماه (وفيات الأعيان)، وهو من كتب التراجم الكبيرة المرتبة على حروف المعجم، وقد ركز فيه ابن خلكان على ترجمة المشاهير من الحكام والوزراء والعلماء العرب في المشرق والمغرب[19] وذيل عليه الصقاعي في كتاب سماه (تالي وفيات الأعيان) استدرك فيه ما أغفله ابن خلكان إضافة إلى تراجم الفترة حتى سنة 725هـ ثم كتب صلاح بن أيبك الصفدي كتابه الكبير الوافي بالوفيات، الذي يُعد من كتب التراجم الهامة، ضمنه كثيراً من تراجم الأعيان والعلماء والإداريين البارزين وكذلك الحكام. وجعله على حروف المعجم ولكنه بدأ بحرف الميم تيمناً وتبركاً باسم الرسول الكريم (ص) وهو من الكتب الضخمة

(16) الصفدي - الوافي بالوفيات ج5 ص 267 وما بعدها.
(17) الصفدي - نكت الهيمان في نكت العميان القاهرة 1911 ص 281.
(18) القفطي - إخبار العلماء بأخبار الحكماء طبعة مصر 1326هـ ص 1.
(19) ابن خلكان - وفيات الأعيان ج1 ت إحسان عباس طبعة بيروت 1971 ص 1.

في ميدان التراجم[20]. وقام محمد بن شاكر الكتبي بتأليف كتاب (فوات الوفيات) جعله ذيلاً على كتاب ابن خلكان وفيات الأعيان، ذلك لأن ابن خلكان كان قد أخل في تراجم فضلاء زمانه على حدِ قول ابن شاكر الكتبي، الذي عمل على استدراكهم في هذا الكتاب[21]. وكتب ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852هـ/1448م كتاباً هاماً سماه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)، وهو أهم كتاب تراجم كتب عن رجال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. ثم كتب السخاوي موسوعة في التراجم تحت عنوان (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) وهو على غرار الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، وهو من أوسع كتب التراجم، التي تناولت رجال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، صنفه السخاوي على طريقة حروف المعجم بادئاً من سنة 801 حتى سنة 900هـ، ويتميز عن غيره من كتب التراجم بنزعته النقدية اللاذعة في كثير من الأوقات، إلى درجة يندر أن أحداً نجا من نقده من الذين ترجم لهم.

وفي ميدان كتب الطبقات يمكن أن نذكر منها كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة 668هـ/1270، وهو أكمل مؤلف عن الأطباء في العصور الوسطى، أرخ لهم منذ فترة ما قبل الإسلام حتى قبل وفاته بقليل، ويتبع هذا الكتاب التسلسل الزمني، وتأتي أهمية هذا الكتاب من أنه كتب شخصيات طبية معاصرة له، اجتمع ببعضهم وقام ببعض التجارب العلمية معهم بمدينة دمشق وبخاصة مع الطبيب الأندلسي ابن البيطار[22]. وكتب القفطي للنحاة كتاباً هاماً سماه (إنباء الرواة على أنباه النحاة) بدأ فيه بترجمة النحويين وعلماء اللغة العربية من عصر أبي الأسود الدؤلي حتى عصره، وشمل علماء المشرق والمغرب ومعظم المناطق التي تعنى بالعربية[23]. وفي النحو أيضاً كتب ابن قاضي شهبة المتوفى سنة 851هـ/1447م كتاباً سماه (طبقات النحويين)، وكتب السيوطي كتاباً آخر هو (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة). وفي طبقات القراء كتب محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة 833هـ/1430م كتاباً هو (غاية النهاية في طبقات القراء) ضمنه تراجم كل الذين لهم معرفة بعلوم القرآن وتجويده، الأمر الذي يمكن اعتباره أهم كتاب في العصور الوسطى عن القراء.

أما في مجال التاريخ العام فقد كان الأمر أوسع من حيث الكم والكيف، ويعود ذلك إلى أن هذا النوع من التاريخ يهتم بكتابة تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة حتى عصر المؤلف. ومن أهم الذين كتبوا في هذا النوع ابن الأثير الجزري المتوفى سنة 630هـ/1233م، الذي ألف كتاب (الكامل في التاريخ) بدأ فيه من الخليقة والطوفان حتى سنة 628هـ/1231م، وهو مرتب على النظام الحولي يجمع الحادثة في مكان واحد، حتى لا يجعلها مضطربة، ويؤرخ للحوادث الصغيرة والوفيات في آخر كل سنة، ولا وجود للسند عنده. وإن ما يزيد من أهمية هذا الكتاب، أنه يؤرخ للمغرب كما يؤرخ للمشرق.

وكتب سبط بن الجوزي يوسف بن قزاوغلي المتوفى سنة 654هـ/1256م، كتاباً سماه (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) انتهى فيه في سنة وفاته، وقد استعرض فيه الأحداث الهامة السياسية والإقتصادية والإجتماعية، ويفرد في نهاية كل سنة فصلاً خاصاً بالوفيات.

(20) الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج1 ـ الصفحات الأولى.
(21) الكتبي ـ فوات الوفيات ج1 ص 2.
(22) ابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2 ط1 المطبعة البهية 1882 ص 2.
(23) القفطي ـ إنباء الرواة على أنباه النحاة ج1 ص 2.

وكتب أيضاً أبو الفداء المؤيد عماد الدين اسماعيل المتوفى سنة 732هـ/1332م كتاباً سماه (المختصر في أخبار البشر) بدأ فيه من آدم وانتهى قبل وفاته بعدة سنوات. وهو من المصادر الهامة لدراسة عصر المماليك. وقد ذيل عليه زين الدين عمر بن الوردي في كتاب دعاه (تتمة المختصر في أخبار البشر) ووصل فيه إلى سنة 745هـ/1345م، وقد اتبع فيه أسلوب أبي الفداء نفسه.

ومن هذه الكتب كتاب (العبر في خبر من غبر) للحافظ الذهبي المتوفى سنة 748هـ/1343م. ويمتاز هذا الكتاب عن نظرائه بالإختصار الشديد، فهو يركز على الحوادث الكبرى ووفيات المشاهير، ويمكن اعتبار هذا الكتاب خلاصة للتاريخ العربي الإسلامي حتى سنة 700هـ/1301م حيث ينتهي. وكتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) لعبد الله بن أسعد اليافعي اليمني المكي المتوفى سنة 768هـ/1367م. وتغلب عليه صفة كتب التراجم على الرغم من أنه من كتب التاريخ العام، ذلك لأنه يركز على تراجم الناس، وقد انتهى فيه صاحبه في سنة 694هـ/1295م.

كذلك كتب إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير الدمشقي المتوفى سنة 774هـ/1373م كتاباً هاماً في هذا الإختصاص، وهو (البداية والنهاية) بدأ فيه منذ آدم حتى سنة 767هـ/1372م. وقد ركز فيه على الأحداث الهامة وذكر الشخصيات البارزة المتوفاة في نهاية كل سنة. وهو من المصادر الهامة لعصر المماليك باعتباره من الكتب، التي احتوت جزءاً هاماً من تاريخهم عاصره مؤلفه.

بقي أن نتحدث عن أهم الكتب التي وضعت في هذا العصر على طريقة الموضوعات أو باسم البلدان، وهي كثيرة جداً الأمر الذي يوجب علينا أن نهتم بأبرزها وأهمها. وهي كتاب (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي المتوفى سنة 555هـ/1160م. وفيه يؤرخ لدمشق من سنة 448 - 555هـ. وكتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي) للعماد الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة 597هـ/1201م. وهو كتاب هام في ميدان الحروب الفرنجية في الشرق العربي، ذلك لأن الأصفهاني كان ملازماً لصلاح الدين الأيوبي، ومعظم حوادثه التي ذكرت كان الأصفهاني شاهداً عليها. وكتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لأبي شامة المتوفى سنة 665هـ/1266م، وهو كتاب بمجمله تاريخ سياسي جمع فيه أبو شامة عصارة كتب سابقة. وقد ذيل عليه في كتاب آخر سماه الذيل على الروضتين، هو كتاب ذو قيمة كبيرة للغاية من النواحي الإجتماعية والسياسية والإقتصادية، وهو مرتب على نظام السنين، ومعظم حوادثه كان أبو شامة شاهد عيان عليها ومن هنا أهمية الكتاب. وكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل المتوفى سنة 697هـ/1298م. وهو كتاب سياسي محض، تناول فيه ابن واصل عرض الأحداث التي جرت لأولاد صلاح الدين الأيوبي وأحفاده. وهو ذو قيمة عالية بالنسبة لدراسة هذه الفترة من الناحية السياسية وغيرها، كون ابن واصل كان أحد المقربين من الأيوبيين. إلى غير ذلك من كتب أخرى.

ب ـ الجغرافيا

لم تأخذ الجغرافية في هذا العصر مساراً مميزاً، يمكن أن نقارنه في العصور السابقة، التي كانت فيها الجغرافية علماً مستقلاً، تميز بعمقه وتخصصه وتركيزه على موضوعات هامة، كالنواحي الاقتصادية والبشرية والطبيعية والعلمية. وإذا كان شيء من هذا قد حدث في هذه الفترة، فإنه جاء مختلطاً مع موضوعات أخرى لا تمت إلى علم الجغرافية بصلة، وقام بكتابته علماء كانوا بمعظمهم غير مختصين أو على الأقل غير مهتمين بالجغرافية. لكنهم فعلوا ذلك من أجل أن تأتي مؤلفاتهم على هيئة موسوعات كبيرة، ضمت مواد علمية مختلفة منها الجغرافية. نذكر من هؤلاء في هذا العصر مجموعة حرصوا على تدوين مادة ضخمة من المعلومات الجغرافية الهامة ضمن كتبهم المتنوعة المواد، كما فعل ابن فضل الله العمري الدمشقي المتوفى سنة 749هـ/1349م، حينما ضمن كتابه المعروف (التعريف بالمصطلح الشريف) بعض المعلومات الجغرافية، على الرغم من أنه كتاب في آداب الدواوين. من ذلك الكلام على الطرق المسلوكة بين البلدان. ويدل كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) على الإطلاع الواسع الذي كان يتمتع به، وعلى براعته في التصنيف وعلى حسن أسلوبه. فعلى الرغم من صفته التاريخية، فإنه عالج فيه الجغرافية العامة، واهتم بشكل خاص بالجغرافية الإقتصادية في المشرق والمغرب وأوروبا.

وكذلك كان المقريزي في كتابه (المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار)، على الرغم من أن هذا الكتاب هو تاريخي في الغالب، فإن للجانب الجغرافي فيه قيمة ظاهرة، والكتاب قاصر على مصر وعلى القاهرة خاصة، ولكنه يتناول طرفاً في أحوال جيران مصر، كالحبشة واليمن إضافة إلى ذكره أقسام الأرض.

وكان لبعض العلماء في هذا العصر اهتمامهم البارز في علم الملاحة البحرية، نذكر منهم شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي النجدي المتوفى سنة 895هـ/1489م، صاحب كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد). وهو كتاب في قسمين، الأول نظري في نشأة الملاحة والبوصلة وفي الأمور، التي يجب على المعلم (الربان أو قائد السفينة) أن يعرفه، وفي منازل القمر والجهات التي تهب منها الرياح، وصلة هذه الجهات بالبوصلة وتقسيماتها، وبطلوع عدد من الكواكب والنجوم وبغيبيها، وقسم عملي يتناول وصف الشواطئ والجزر وما عليها من العلامات، التي تساعد الربابنة على الإهتداء في الملاحة وعلى الإقتراب بالسفن من مراسيها[24].

وفي هذا العصر اشتهر أمر الرحلة من المغرب والأندلس إلى المشرق وبالعكس. وقد كان الأندلسيون والمغاربة رواد هذا الميدان بصورة عامة. فقد وصل بعضهم إلى أماكن نائية في الشرق والغرب، وسجلوا كثيراً من المعلومات عن البلدان التي قصدوها بالزيارة، كانت عظيمة الأهمية في العصور التي خلت وما زالت حتى اليوم.

كان أبو حامد الغرناطي أول الذين زاروا المشرق العربي لفترة قصيرة، زار خلالها الإسكندرية والقاهرة ودمشق والموصل في سنة 512هـ/1119م، واهتم بوصف فيضان النيل والأهرامات. ثم انتقل بعد ذلك إلى خوارزم ثم إلى جنوب الاتحاد السوفيتي السابق والمجر، وألف كتابه المشهور (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) عن مشاهداته في

(24) أنور عبد العليم ـ ابن ماجد الملاح طبعة القاهرة 1966 ص 46 وما بعدها.

هذه البلاد، فذكر أشياء من الجغرافية الوصفية والبشرية، وأشار إلى أشياء لها صلة بطبقات الأرض وعلم الحياة، فقد تكلم عن صفة البحار وعجائب حيواناتها وما في جزائرها من النفط وغيره، كما تضمن صفات الحفائر والقبور وما تضمنته من العظام إلى غير ذلك. ويمكن أن نطلق على إنتاجه العلمي هذا (الأدب الجغرافي) الذي يُعد من أقدم من ألف فيه، حيث لم يكن معروفاً في المشرق، فهو الذي أرسى قواعد هذا الفن في المشرق وربما في الأندلس[25].

جاء بعد أبي حامد الغرناطي الرحالة ابن جبير محمد بن أحمد الكناني، الذي قام برحلته إلى المشرق على أثر شيوع خبر تحرير القدس الشريف. وقد انطلق من غرناطة في سنة 585هـ/1190م، فزار الشام والعراق ومصر والحجاز، وسجل كل شيء عن مشاهداته في هذه البلاد، ولا سيما الأحوال الإقتصادية والإجتماعية والمنشآت العلمية والعمرانية، وفي بعض الأحيان كان يتحدث عن الأوضاع السياسية إلى غير ذلك. ويمكن ان نقول عن هذه الرحلة الموفقة، أنها موسوعة عن المشرق العربي شملت جميع نواحي الحياة، وجاءت فائدتها جمة في الماضي والحاضر[26].

تلا ابن جبير الرحالة المغربي العبدري صاحب الرحلة المغربية، التي تمحورت بشكل خاص عن الحياة العلمية بفلسطين ومصر والحجاز. وتبعه بوقت قصير الرحالة أبو عبدالله محمد بن عمر السبتي المعروف بابن رشيد، الذي دون رحلته المسماة (ملء العيبة) في ست مجلدات، ويشبه العبدري من حيث اهتمامه بالأمور العلمية[27]. وعاصره جغرافي مغربي آخر، هو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، الذي صنف الرحلة المشرقية، التي اقتصر فيها على مصر والحجاز، ويشبه أسلوبه إلى حدٍ كبير أسلوب ابن جبير، ذلك لأن اهتمامات الاثنين هي واحدة تقريباً، مع الأخذ بعين الإعتبار أن رحلة ابن جبير هي أكثر شمولية وإتساعاً[28].

لكن الرحالة الأكثر شهرة، من حيث اتساع الرقعة العالمية التي زارها، هو ابن بطوطة الطنجي المغربي، الذي بقي أكثر من ربع قرن من الزمن يتجول في دول آسيا وإفريقيا خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ورحلته هي أوسع رحلات الأندلسيين والمغاربة، من حيث المعلومات التي اشتملت عليها.

بعد ابن بطوطة وصل إلى المشرق العربي رحالة مغربي آخر، هو علم الدين خالد ابن عيسى البلوي صاحب الرحلة المسماة (تاج المفرق في تحلية علماء المغرب والمشرق) وقد زار مصر والحجاز، وجمع بين أسلوب ابن جبير وأسلوب العبدري. ذلك لأن اهتماماته كانت في ميدان المسائل العلمية والإجتماعية والإقتصادية، ويمكن أن نقول بصدد هذه الرحلة، أنها من الرحلات ذات الطابع الموسوعي، وجاءت أهميتها من خلال المعلومات القيمة، التي احتوتها عن مناطق مصر والحجاز[29].

(25) حسين مؤنس ـ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس طبعة مدريد 1967 ص 310.
(26) رحلة ابن جبير ص 13 وما بعدها.
(27) المقري ـ نفح الطيب ج2 ص 273 وما بعدها.
(28) السبتي ـ مستفاد الرحلة والإغتراب ـ تحقيق عبد الحفيظ منصور تونس وليبيا 1975 ص 7.
(29) البلوي ـ تاريخ المغرق في تحلية علماء المغرب والمشرق ـ تحقيق الحسن السائح ص 144 وما بعدها.

وبالجملة فقد كانت أعمال الرحلة من المغرب والأندلس باتجاه المشرق العربي في هذه الفترة، من الأمور النشيطة جداً، الأمر الذي تمخض عن كم هائل من المعلومات التي دونها أصحاب هذه الرحلات في مختلف الميادين، وشكلت من ناحية أخرى مصادر هامة لعدد من المؤلفين في الجغرافية والتاريخ والعلوم الأخرى، وما زالت فائدتها قائمة حتى اليوم.

في مقابل ذلك حدثت رحلات عكسية من المشرق إلى المغرب والأندلس والمناطق المجاورة لهما، لكن هذه الرحلات لم تكن كالتي تحدثنا عنها من حيث هدفها وإنتاجها العلمي العام. فمن حيث هدفها كان في معظم الأحيان سياسياً بعكس ما كان عند الرحالة المغاربة والأندلسيين، الذين قاموا جميعاً برحلاتهم دون توجيه من سلطة معينة، بينما كان الرحالة المشارقة موجهين من قبل حكامهم للقيام بمهمات دبلوماسية معينة، ومع ذلك فقد رصدوا مظاهر ومسائل تنضوي تحت لواء علم الجغرافية. نذكر من هؤلاء جمال الدين ابن واصل المتوفى سنة 697هـ/1298م، الذي أرسله السلطان الظاهر بيبرس إلى صقلية في سفارة دبلوماسية، وعلى الرغم من ذلك فإن ابن واصل اهتم بأشياء هامة في جزيرة صقلية، ولا سيما فيما يتعلق بتأثر أهل صقلية آنذاك بالحضارة العربية الإسلامية. فقد ذكر أن الصقليين يعملون بأساليب الإدارة العربية الإسلامية، من خلال اعتمادهم على العناصر العربية في تنظيم شؤون البلاد، ومنها وظائف البلاط الملكي. وقد ذكر أن الصقليين كانوا بصورة عامة لا يثقون إلا بالعرب، وكان بعض ملوكهم لا يتزوجون إلا العربيات لشهرتهن بالعفة والفضيلة، وكانوا من جهة أخرى يحسنون التكلم بالعربية، وبلغ من تسامح الملك (روجار) أنه كان يضرب نقوده بكل لغات رعاياه، ومنها اللغة العربية[30].

وفي أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي زار عبد الباسط ابن خليل الظاهري العديد من المدن المغربية، مثل طرابلس وتونس وتلمسان ووهران، ومن وهران انتقل إلى الأندلس إلى غرناطة، وكان بوده زيارة قرطبة عاصمة العرب بإسبانية، لكنه لم يتمكن من تنفيذ هذه الزيارة لأسباب صحية. وفي كتابه (الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم) يولي مدينة غرناطة بعض اهتمامه، فقد ذكرته هذه المدينة بكل شيء بمدينة دمشق، التي كان يعرفها جيداً، وكثيراً ما يقارن في هذا الكتاب بين المدينتين، ذلك لأنهما متشابهتان من حيث الإقليم والمناخ[31] فكانت غرناطة تسمى دمشق الأندلس.

مهما كان واقع الحال فإن هذه الرحلات عبّرت عن شيء في غاية الأهمية، هو أن الأرض العربية في المغرب والمشرق، كانت مفتوحة أمام الجميع ولهم كامل الحرية في الإنتقال من مكان إلى آخر وفي كل الأوقات، دون أن يصطدموا بأية عقبة تحول دون ذلك، رغم أن التجانس السياسي على صعيد الحكام لم يكن على ما يرام.

(30) الحسن السائح ـ مجلة البنية ـ العدد 3. وزارة الدولة للشؤون الإسلامية 1962 ص 38 ـ موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ـ طبعة بيروت.
(31) كراتشكوفسكي ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين عثمان ص 204.

ح ـ الفلسفة وعلم الإجتماع والتصوف

بالنسبة للفلسفة التي كانت في العصور الوسطى تُعد مفاتيح كل العلوم التطبيقية، لم تجد أدنى اهتمام في فترة حكم الأيوبيين والمماليك موضوع هذا البحث، ذلك لأن هذه الفترة اختلفت عن الفترات السابقة، في أن سيطرة رجال الدين كانت محكمة فيها، فقد تمكنوا من إقناع الحكام بخطورة الفلسفة على الدين، وأول من تبنى هذه الفكرة من الحكام هو نور الدين محمود زنكي، وتبعه صلاح الدين الأيوبي الذي قام بتنفيذ عملية قتل الفيلسوف السهروردي صاحب كتاب (حكمة الإشراق). وكثيراً ما حلّ رجال الدين محل الحكام في عملية محاربة الفلسفة، مثال ذلك الشيخ تقي الدين بن الصلاح، الذي كان لا يمكن أحداً بمدينة دمشق من قراءة المنطق والفلسفة، ويؤيده في ذلك الحكام[32].

ولم يتغير الأمر في فترة حكم المماليك، وبقي أمر الفلسفة متعثراً وكذلك من الأمور الممنوعة على اعتبارها مكمن خطر في نظر الجميع. وكان لمحاربة الفلاسفة وعلماء الكلام في هذه الفترة أثر بالغ الخطر على حركة الإبداع بوجه عام. فحينما كان الإشتداد في إرهاق رجال هذا العلم في قمة نشاطه، كان الجميع يشتدون في التهافت على إجترار العلوم الدينية والإقبال عليها بشكل لا نظير له[33].

وفي مجال علم الإجتماع فإنه علم جديد على الإنسانية، لم يظهر إلا في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، أسهم في ظهوره وترسيخ أسسه العامة، العالم العربي عبد الرحمن بن خلدون المغربي المولد والنشأة والمصري الوفاة كان ابن خلدون قد عمل في الإدارة المغربية والأندلسية ردحاً من الزمن قبل مجيئه إلى مصر، فعمل عند بني مرين بفاس، وعند بني عبد الواد بتلمسان، ثم عند بني الأحمر بغرناطة. ولما سئم التطواف والمناصب وخاف عاقبة السياسة آثر الإعتزال في قلعة تقع إلى الشرق من مدينة تلمسان بالجزائر، وبقي فيها أربع سنوات يكتب تاريخه المشهور بالعبر.

وفي سنة 784هـ/1382م سار ابن خلدون من تونس إلى الحج، فلما وصل إلى مصر عُرض عليه القضاء على المذهب المالكي، فقبله فتأخر ذهابه إلى الحج حتى سنة 789هـ/1387م. ولما غزا تيمورلنك دمشق ذهب السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى دمشق ليفاوض تيمورلنك، واصطحب معه نفراً من العلماء من بينهم ابن خلدون. ثم سمع الناصر فرج بمؤامرة عليه بمصر، فاضطر للعودة، فحمل ابن خلدون مسؤولية الأمور، وذهب سراً على رأس وفد مفاوض والتقى بتيمورلنك، وألقى بين يديه خطبة نفيسة فأكرمه تيمور عليها وأعاده إلى مصر. وقد توفي بالقاهرة سنة 808هـ/1406م[34].

(32) النعيمي الدمشقي ـ الدارس في تاريخ المدارس ج1 ص 20 وما بعدها.
(33) كرد علي ـ خطط الشام ج4 طبعة دمشق 1926 ص 55.
(34) ابن خلدون ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً وكذلك كتابنا ـ الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص 297 وما بعدها.

امتاز ابن خلدون بسعة اطلاعه على كتابات الأقدمين وعلى أحوال البشر، وكان قادراً على استعراض الآراء ونقدها، مع حرية في التفكير وإنصاف لأصحاب الآراء المخالفة لرأيه. ثم إنه مفكر متزن لا يميل مع الهوى، بل تراه يقيد استنتاجاته كلها بما هو مشاهد في الإجتماع الإنساني.

أما في حياته الشخصية فإن ابن خلدون، يعتقد أن العقل قاصراً على إدراك الحقائق الغيبية، ولذلك نراه في حياته الشخصية والعملية يعول على الشرع وحده. وأما في حياته العقلية وفي تآليفه خاصة، فإنه معتزلي التفكير يعتمد العقل والأقيسة المنطقية، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار.

أما بالنسبة لعلم الاجتماع فقد كان يسميه العمران، لذلك فهو عالم اجتماعي وواضع علم الإجتماع على أسسه الحديثة لم يسبقه إلى ذلك أحد. ثم أن علماء الاجتماع الذين جاؤا بعده من الغربيين أنفسهم، كانوا دوماً مقصرين عنه في بعض النظريات الإجتماعية أو غافلين تمام الغفلة عن عدد من قوانين العمران التي استخرجها. ولما أطل القرن التاسع عشر، واستبحر علم الإجتماع في القارة الأوروبية وأمريكا، أدرك علماء العصر الحديث قيمة الآراء الصائبة وطرافة الأحكام الشاملة وبُعد النظر الثاقب في ما بسطه ابن خلدون في مقدمته المشهورة[35].

لقد أراد ابن خلدون في آرائه في العمران، أن تُطبق على المجتمع العربي الإسلامي، ومع ذلك فإن قوانينه في هذا الشأن تنطبق أيضاً على غير العالم العربي الإسلامي، ولا تزال القوانين تُصدق قليلاً أو كثيراً على بيئات عديدة في أزمة عديدة مختلفة، وعلى هذا لا يكون ابن خلدون أول عالم اجتماعي في العرب فحسب، ولا هو من أكابر علماء الإجتماع فقط، بل هو أول علماء الإجتماع بإطلاق وأعظمهم إدراكاً للحقائق العمرانية الأولى في تاريخ الفكر الإنساني برمته[36] والعمران عند ابن خلدون هو الإجتماع الإنساني القائم على صلة البشر بالأرض المعمورة أي البيئة الطبيعية، ثم على صلة بعض البشر ببعض في المكان الواحد أو في الأمكنة المتفرقة أي البيئة الإجتماعية. ويجتمع البشر حتى يتعاونوا فيتغلبوا على مصاعب البيئة الطبيعية في المقام الأول، ثم لتوفير الراحة والترف باستنباط الصناعات ووسائل التنعيم واستخراج القوانين وترتيب المعاملات والتمتع بالملاذ والشهوات، حينما تنقلب البداوة إلى حضارة مستقرة[37].

يشير ابن خلدون إلى ناحية هامة جداً، تتجلى في أثر الإقليم والتربة في سكان المناطق المختلفة. فبعض أقاليم الأرض أكثر موافقة للسكنى من بعضها الآخر. والبلاد المعتدلة أكثر عمراناً من البلاد المفرطة في الحر أو البرد. وإذا أفرط الحر في البلاد اسود جلد أهلها، وغلبت عليهم الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص موصوفين بالحمق. أما سكان البلاد الباردة، فيغلب عليهم الإطراق إلى حد الحزن ثم التفكير في العواقب. ثم أن الأقوات تختلف باختلاف الأقاليم وتترك أثرها في الناس، فإن الإفراط في الخصب والنعيم والأطعمة الغليظة،

(35) ساطع الحصري ـ مقدمة ابن خلدون طبعة مصر 1953 ص 110 وما بعدها.
(36) ساطع الحصري ـ المرجع السابق ص 13 وما بعدها.
(37) ابن خلدون ـ المقدمة ص 41 وما بعدها.

يورث قلة المناعة في الجسم، ويورث البلادة، والغفلة وقبح الأشكال، كما أن الجوع المفرط ينهك الجسم والعقل، غير أن أهل البلاد المجدبة أقدر على احتمال المجاعات[38].

وقال ابن خلدون، بأن للعمران الحضري خصائص مميزة، كالإستقرار أي النزول في بلد كبير نزولاً دائماً، والعمل في وجوه المعاش الحضرية من تجارة وصناعة وزراعة، وكالتوسع في المأكل والملبس والمسكن، فأول ما يقوم به المتحضر، يوسع على أهله ونفسه وأتباعه في المآكل ثم الملابس ثم المساكن، والترف الذي يعني إلى الإخلاد إلى الراحة والإغراق في النعيم وما إلى ذلك[39].

وعن الدولة ونشوئها وعمرها واستمرارها، ذكر عدة ملاحظات جديرة بالتقدير والإحترام، من ذلك قوله أن للدولة نطاق من الأرض لا تتعداه، وإذا كان أهل عصبيتها أكثر عدداً كانت هي أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً. وقال إن الدين وحده لا ينشئ دولة، بل لابد للدين نفسه من عصبية حتى ينتشر ويستقر.

والدولة في رأي ابن خلدون تمر في أربعة أجيال، مدى كل جيل ثلاثون سنة، فيصبح عمر الدولة مئة وعشرين سنة قد تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً. ففي الجيل الأول يكون جانب أهل الدولة مرهوباً والناس له طائعين، وأما في الجيل الثاني فإن الملك يتحول بالترف من البداوة إلى الحضارة، لكن أهل الدولة يظلون يتذكرون شيئاً من مجدهم الأول، فيحاولون التشبه بأهل الجيل الأول ويدافعون عن دولتهم. وفي الجيل الثالث ينغمس أهل الدولة في الترف وينسون عهد البداوة، وتذهب عصبيتهم جملة ويعجزون عن المدافعة، ولا يبقى لهم إلا مظاهر القوة من الشارة وركوب الخيل بلا فروسية ولا شجاعة، عندئذ يحتاج صاحب الدولة إلى أن يستظهر بغيره. أما في الجيل الرابع فتنهار الدولة نهائياً[40].

ويقول ابن خلدون عن التعليم، أنه ضرورة مطلقة للمجتمع والحياة، والعلوم عنده صنفان، صنف يهتدي إليه الإنسان بفكره كالعلوم الرياضية والطبيعية والعقلية، وصنف مستند إلى الواضع الشرعي كعلوم الدين.

ويرى من جهة أخرى، أن التعليم صناعة خاصة غايتها إثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين، لا حملهم على حفظ فروع العلم، وهو يضع للتعليم منهجين يجب أن يطبقا في وقت واحد، فنهج التوسع ومنهج التدرج. يبدأ تعليم الصغير بالتدريج به من الأسهل إلى الأقل سهولة، وهكذا إلى آخر المطاف.

ويشدد على عدم إتباع الشدة في عملية التعليم، وبخاصة تعليم الصغار، لأن الشدة مضرة بهم، لأنها تحول دون إكتساب الملكة. وكذلك يرى أن التعلم لا يحصل كله بالإستعداد والجد، وإن هناك جزءاً طبيعياً يكتسب بالفطرة، إذا ترك الإنسان فسحة للعقل كي يستريح.

(38) ابن خلدون ـ المقدمة ص 82 وما بعدها.
(39) ابن خلدون ـ المقدمة ص 172.
(40) ابن خلدون ـ المقدمة ص 175 وما بعدها.

وله رأيه في الكثير من الموضوعات الأخرى، كالفلسفة والتاريخ والكيمياء وعلم النجوم وغيرها، وهي مسائل تستوجب وقفة مطولة في غير هذا المقام، ذلك لأننا حرصنا في غاية الحرص أن نلتزم في حدود العنوان الذي وضعناه في البداية وهو علم الإجتماع، الذي كان ابن خلدون مبتكره وواضع دعائمه الأولى، كما اعترف بذلك الباحثون الأوروبيون وغيرهم من بقية علماء المعمورة، وقد طُور هذا العلم في الفترة اللاحقة، حتى غدا من العلوم المتقدمة والضرورية لتنظيم أي مجتمع من المجتمعات.

أما بخصوص التصوف في هذه الفترة، فقد كان على نوعين، تمثل النوع الأول بمجموعة من المتصوفين، الذين اعتادوا على حياة معينة في الرباطات والزوايا والخانقاهات، التي خصصت لهم بشكل عام، وقد تميز نشاطهم في العبادة والورع والدعوة إلى تمثل السلف الصالح في الحياة الدنيا، كالبساطة في العيش والورع وقهر النفس. وتمثل النوع الثاني بعدد من المتصوفين، الذين اختلفوا عن السابقين اختلافاً جذرياً في كل شيء، لذلك يمكن أن نسمي هذا النوع بالتصوف الفلسفي. لذلك فلم يحظ هؤلاء المتصوفون بما حظي عليه أتباع النوع الأول من احترام وقبول شعبي كبير، على الرغم من جهل أفراده في كل المجالات، ورغم أنهم شكلوا تياراً مغايراً تماماً لتعاليم الدين الإسلامي، ذلك لأن الإسلام يرفض التواكل والكسل والتقاعس والدعة، ويحض على العمل ويقدسه[41].

وقد نال أتباع هذا النوع من المتصوفة عناية فائقة من المماليك وقد تجسد ذلك على أرض الواقع ببناء الكثير من أماكن الرباط والزوايا وما شابه ذلك في مصر والشام، وهي أماكن كان يعيش فيها المتصوفون وتصرف عليهم الدولة في كل الوجوه. وكان المماليك يهدفون من وراء ذلك إقناع العرب بشكل خاص، بأنهم حريصون على حماية الشعائر الدينية وما يتصل بها من أشياء وأمور، وقد وصل الأمر ببعض السلاطين المماليك أنه كان يُجلس إلى يساره بعض هؤلاء المتصوفة، وذلك في المناسبات الكبيرة كعيد الفطر وعيد الأضحى أو المولد النبوي[42].

تركز وجود هؤلاء المتصوفة بشكل خاص بالقاهرة والقدس الشريف ودمشق والحجاز، واشتهر بعضهم عند الناس بأعمال خارقة تشبه السحر والشعوذة.

وبالجملة فإن متصوفة هذا النوع، لم يقدموا للمجتمع في مصر والشام في هذه الفترة أية بادرة إيجابية يمكن أن نتوقف عندها، ومع ذلك فقد قوبلوا على الدوام بمزيد من الإحترام والتقدير.

أما النوع الثاني من المتصوفة، فقد كان أصحابه أصحاب نظريات وطرق صوفية عُرفت واشتهرت في العصور الوسطى، وما زالت حتى يومنا هذا. وأثار بعض هذه النظريات جدلاً كبيراً، لم يتوقف حتى الآن، وبخاصة نظرية ابن عربي في وحدة الوجود، التي أثارت عليه نقمة الكثيرين في مصر والشام، بينما قوبل آخرون بالرضا والتقديس والقبول.

(41) آسين بالاثيوس ـ ابن عربي ترجمة عبد الرحمن بدوي طبعة القاهرة 1965 ص 70.
(42) ابن تغري بردي ـ النجوم الزاهرة ج12 ص 73.

ومذهب ابن عربي في وحدة الوجود، مبني على أساس أنه لا وجود إلا وجود الله، وما ذلك التعدد المرئي في المخلوقات في العالم إلا ضرب من الوهم في حقيقته، تقر فيه العقول البشرية التي عجزت عن امتلاك القدرة على تمثل هذه الحقيقة، التي هي وحدة الوجود. ويشرح ابن عربي مذهبه هذا بشيء من التفصيل في كتابيه (الفتوحات المكية) و(نصوص الحكم) ففي الجزء الثاني من الكتاب الأول، يلجأ إلى الإشارة لمذهبه بشكل مختصر حينما يقول: «سبحان من خلق الأشياء وهو عينها». ويؤمن ابن عربي بالفيض الذي يقصد، أن الله سبحانه وتعالى أبرز الأشياء من وجود علمي إلى وجود عيني، ويفسر وجود المخلوقات بالتجلي الإلهي الدائم الذي لم يزل ولا يزال، وظهور الحق في كل آن فيما لا يحصى عدده من الصور[43]. وهذا التعدد في الصور والأشياء، لا يعود كونه وهمياً لا حقيقة له، يقول: «ثم السر الذي فوق هذا في هذه المسألة، أن الممكنات على أصلها من العدم وليس وجود الحق بصور ما هي من الممكنات في أنفسها وأعيانها»[44]. إذن وجود الممكنات في رأي ابن عربي هو عين وجود الله، وما ذلك التعدد إلا وليد الحواس والعقل الإنساني القاصر، الذي يقف عاجزاً عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء، التي إذا نظر إليها من حيث ذاتها قيل هي الحق، وإذا نظر إليها من حيث صفاتها، قيل هي الخلق[45].

وقد أدى به القول بوحدة الوجود إلى القول بوحدة الأديان، فهو لا يفرق بين سماويها وغير سماويها، إذ أن الجميع يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات، فالغاية من عبادة العبد لربه في رأيه، هي التحقق من وحدته الذاتية معه، والباطل من العبادة، أن يقصر العبد ربه على مجلس واحد دون غيره ويسميه إلهاً[46].

وقد أثارت مؤلفات ابن عربي، وبخاصة التي يتحدث فيها عن مذهبه في وحدة الوجود جدلاً كبيراً، فأيده قسم وعارضه قسم آخر. ومهما يكن من أمر فإن ابن عربي كان أهم شخصية في العصور الوسطى في مجال التصوف الفلسفي، من حيث تأثير إنتاجه الفكري والثقافي الذي كان جديداً ومبتكراً في زمانه[47] فكان بذلك صاحب أول مذهب فكري جديد ومبتكر، انفرد به وتميز عن كل علماء عصره. فمنذ أن توفي لم تمض فترة زمنية إلا وكانت له فيها سيرة وذكراً وحديثاً عن أفكاره ومذهبه سابق الذكر. كما اعتنق مذهبه العديدون من علماء العصور الوسطى وشعرائهم ومفكريهم، الأمر الذي لم يحدث لأحد من قبله أو بعده[48].

من الذين اشتهروا بعد ابن عربي في مجال التصوف، يمكن أن نذكر علي بن عبدالله الشاذلي نزيل الإسكندرية المتوفى سنة 656هـ/1258م. ويعد صاحب الطريقة الشاذلية، التي تختلف عن طريقة ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود، الذي يبحث في ماهية وجود الله وتحديد هذا الوجود بصورة ثابتة ونهائية، تختلف عنها بأنها تجسد

(43) ابن عربي ـ فصوص الحكم ج1 طبعة بيروت بلاتا ص 28. زكي مبارك ـ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ج1 طبعة أولى القاهرة 1938 ص 188 وما بعدها.
(44) ابن عربي ـ فصوص الحكم ج1 ص 96.
(45) ابن عربي ـ فصوص الحكم ج1 ص 24.
(46) دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية مجلد 1 ص 233.
(47) ابن عربي ـ فصوص الحكم ج1 ص 25.
(48) آسين بالاثيوس ـ تاريخ الفكر الأندلسي ص 273 وما بعدها.

خمسة ثوابت رئيسة، هي ممارسة المحبة بين الناس، والسعي وراء المعرفة والعلم، والعمل

3- تطور العمران وهندسة البناءفي عصر الأيوبيين والمماليك

اختلف هذا العصر عن كل العصور السابقة تماماً في مجال المنجزات العمرانية على كل صعيد. مثال ذلك أن كل الدول التي سادت في الفترات السابقة، عملت على بناء مدينة أو أكثر باستثناء الأيوبيين والمماليك، الذين لم يلتفتوا لمثل هذه الأمور على الإطلاق. ففي العصر الراشدي أمر الخليفة عمر بن الخطاب ببناء مدينتين في العراق، هما البصرة والكوفة لإقامة الجند ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى أن أصبحت هذه المدن لسكنى المدنيين من مختلف الأصناف. وفي العصر الأموي بنيت ثلاث مدن، هي القيروان بالمغرب الأدنى (تونس الحالية) لتكون قاعدة انطلاق للقوى العربية الفاتحة لبقية أجزاء المغرب الكبير، وتطورت فيما بعد لتصبح عاصمة لكل الدول التي تعاقبت على حكم المغرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ومدينة واسط بالعراق بناها الحجاج بن يوسف الثقفي في منطقة متوسطة بين البصرة والكوفة، لتكون قاعدة لإقامة والي العراق في العصر الأموي، ومدينة الرملة إلى الغرب من القدس الشريف بمئة وخمسين كيلومتراً على البحر المتوسط بفلسطين، بناها الخليفة سليمان بن عبد الملك حينما كان ولياً للعهد لتكون مكاناً لإقامته، وهو الذي أحب الإقامة بفلسطين لأسباب خاصة لا نعرفها على وجه الحقيقة.

أما في العصر العباسي فقد بنيت مدينة بغداد، لتكون العاصمة الجديدة للدولة العباسية بدلاً من دمشق، بنيت على نهر دجلة في عصر الخليفة أبي جعفر المنصور، ثم بنيت مدينة سامراء في عصر المعتصم لتكون عاصمة جديدة للدولة العباسية، أراد من بنائها تخليص أهل بغداد من تصرفات واعتداءات الترك، الذين كانوا يمثلون معظم قوة الجيش آنذاك، ثم بنيت مدينة المتوكلية إلى غير ذلك.

وفي الأندلس بنى الأمويون في عصر الإمارة والخلافة العديد من المدن، مثل مجريط (مدريد الحالية) ومرسية على أنقاض تُدمير، وطلمنكة، ومدينة الزهراء التي بناها الناصر لدين الله في أثناء خلافته بالأندلس إلى الشمال الغربي من قرطبة، والزاهرة التي بناها الحاجب محمد بن أبي عامر في شرق قرطبة، ومدينة المرية التي بنيت على البحر المتوسط في جنوب الأندلس لتصبح أهم مرفأ أندلسي في العصور الوسطى إلى غير ذلك من حصون وقصور تطور بعضها إلى مدن.

وفي المغرب قامت الدول المنفصلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ببناء عدد من المدن الجديدة لتكون بمثابة عواصم تميزها عن الدول الأخرى المجاورة، فبنى الأغالبة عدة مدن بالمغرب الأدنى مثل رقادة إلى جنوب القيروان وغيرها، وبنى الخوارج الإباضيون مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر) في عمالة وهران اليوم، وبنى الخوارج الصفريون مدينة سجلماسة (تافيلالت اليوم) بجنوب المغرب الأقصى (المملكة المغربية

اليوم). وحينما سيطر الفاطميون على المغرب الكبير، بنوا عاصمة لهم في شرق تونس هي المهدية على البحر المتوسط.

وفي عصر المرابطين الذين حكموا المغرب الكبير والأندلس لفترة قرن تقريباً، بنوا عاصمة لهم هي مدينة مراكش، وكذلك فعل الموحدون الذين خلفوهم في الحكم حتى سنة 668هـ/1270م، فبنوا مدينة الرباط الحالية لتكون عاصمة لدولتهم، وكانت تسمى في عصرهم رباط الفتح.

كذلك فقد خلا العصر الأيوبي والمملوكي موضوع هذا البحث من بناء القصور الملكية، التي عُرف بناؤها في العديد من المناطق العربية في الشرق والغرب، مثل القصور الأموية في بلاد الشام، والقصور الأموية بالأندلس، وقصور حكام الطوائف الذين جاؤا بعدهم في حكم الأندلس أيضاً، ثم القصور التي بناها العباسيون في بغداد وغيرها، وقصور بعض حكام الدول المنفصلة في المغرب الكبير ومصر بشكل خاص.

وهكذا فقد انحصر اهتمام الحكام والناس بعامة في هذا العصر ببناء المدارس ودور التعليم، ثم ببناء المساجد، ثم ببناء القلاع العسكرية الجديدة وتطوير القلاع التي كانت قد بنيت في العصور السابقة. ففي المجال الأول وهو بناء المدارس، فإن من الممكن القول أن الإهتمام فيه بدأ منذ عصر نور الدين محمود زنكي، ثم استمر في عصر الأيوبيين، وتطور من حيث الكم والكيف في عصر المماليك. وكان السبب في إقامة هذه المدارس منذ البداية، هو تدريس العلوم الدينية من قراءات وفقه وتفسير وحديث وترويجها بين الناس، من أجل الحفاظ على هذه العلوم من هجوم مضاد هو هجوم العلوم العقلية التي هزمت في هذا العصر شر هزيمة، ومع مرور الأيام سمح ببعض الكراسي لمدرسي علوم اللغة العربية وعلوم الطب. وسنقتصر في هذا الميدان على ذكر المدارس الكبيرة والشهيرة مراعين في ذلك التسلسل الزمني قدر الإمكان.

ففي مدينة القاهرة بنيت عشرات المدارس وكذلك بالإسكندرية، نذكر منها على سبيل المثال المدرسة الفاضلية نسبة إلى عبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل في عصر الأيوبيين، ومدرسة الكامل الأيوبي التي اشتهرت بدار الحديث الكاملية، التي بناها في منطقة ما بين القصرين بالقاهرة سنة 622هـ/1226م لتدريس الحديث النبوي الشريف، والمدرسة الصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب، التي بنيت بالقاهرة سنة 639هـ/1242م في منطقة بين القصرين، والمدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس، التي بناها بالقاهرة في منطقة بين القصرين، والمدرسة المنصورية نسبة إلى السلطان المنصور قلاوون في منطقة بين القصرين، وقد خصصت للتدريس على جميع المذاهب الإسلامية المعروفة إضافة إلى قبة خاصة لتدريس الحديث عرفت في العصور الوسطى بالقبة المنصورية، ومثلها كانت المدرسة الشيخونية التي بناها الأمير المملوكي شيخون، هذا بالإضافة إلى خانقاه لإقامة الصوفية والزهاد، ومدرسة السلطان حسن بالقلعة، التي قيل عنها أنها كانت من أضخم وأوسع مدارس مدينة القاهرة[49].

(49) انظر عن هذه المدارس ـ علي مبارك ـ الخطط التوفيقية ج6 ص 12 و14 وج1 ص 15.

أما في بلاد الشام فقد بنيت مدارس مماثلة وبخاصة في مدينة دمشق، التي كانت تماثل القاهرة في هذا المجال الهام، فمن أهم مدارس دمشق مدرسة دار الحديث النورية نسبة إلى بانيها نور الدين محمود زنكي، وهي أول دار حديث بنيت في مصر والشام، ثم المدرسة الظاهرية إلى الشمال الغربي من المسجد الأموي وهي من بناء السلطان الظاهر بيبرس، وكانت وما زالت من أهم مكتبات دمشق، وكانت إلى عهد قريب تسمى بالمكتبة الوطنية، حيث نقلت معظم محتوياتها إلى مكتبة الأسد بساحة الأمويين، والمدرسة العادلية التي تعرف بالعادلية الكبرى، وهي من مدارس الشافعية بدمشق، تقع إلى الشمال من المسجد الأموي بدمشق تجاه المدرسة الظاهرية يفصل بينهما الطريق، أول من أنشأها نور الدين زنكي، وتوفي ولم يتممها ثم بنى بعضها الملك العادل الأيوبي، وتوفي ولم تتم، فأكملها ولده المعظم سنة 619هـ/1223م[50]. وكانت لفترة قريبة مقراً لمجمع اللغة العربية، والمدرسة الناصرية البرانية والتي تعرف أحياناً بالرباط الناصري، كانت إحدى مدارس الشافعية بدمشق بسفح قاسيون في محلة الفواخير، أنشأها صلاح الدين بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر عزيز الدين غازي بن صلاح الدين الأيوبي[51]. ثم المدرسة الجقمقية بالقرب من المسجد الأموي إلى الشمال الشرقي قليلاً، وهي الآن مقر الخط العربي وهي من أحسن مدارس دمشق في العصور الوسطى، هذا بالإضافة إلى الشامية البرانية في أول حي ساروجة من جهة الجنوب الشرقي، وقد رممت مؤخراً وأصبحت من أهم معالم منطقة حي ساروجا بدمشق، أضف إلى ذلك عدداً جماً من المدارس المتفرقة هنا وهناك. وكانت هذه المدارس سواء بالقاهرة أو دمشق أو أي منطقة أخرى بمثابة كليات جامعية بكل ما تعنيه هذه العبارة.

أما بخصوص المساجد التي بنيت في هذا العصر، فهي من الكثرة والتعدد في مصر والشام، الأمر الذي يستحيل معه الحديث عنها في هذا المكان، وسنذكر فقط تلك المساجد التي بناها رجال الحكم، ذلك لأنها تميزت بالضخامة والإتساع والفخامة والإتقان، فقد غلب على هذه المساجد شكل المربع الكبير، وكل مسجد كان يحتوي على صحن كبير تحيط به أربعة إيوانات كان أكبرها إيوان القبلة. وفي عصر المماليك المتأخر وهو العصر الذي يسمى عادة بعصر المماليك الجراكسة، أصبح بناء المسجد يميل إلى عدم الضخامة والإتساع إلى درجة اختفى عندها ذلك الصحن الواسع المكشوف، الذي كان من أهم ما يميز الجامع في عصر المماليك البحرية. ومن أهم المساجد مسجد الناصر محمد بن قلاون الذي حكم من سنة 699 إلى سنة 741هـ بالقاهرة، وقد استغرق بناؤه ثلاث سنوات بدأت سنة 741 وانتهت في سنة 743هـ، وقد تميز هذا المسجد باتساعه وضخامته وزخارفه وروعته الفنية، إلى درجة وصفوه بأنه تحفة فنية غالية الثمن. كما شهدت دمشق مسجداً من هذا الطراز ولكن على نسخة أصغر من حيث الحجم، وهو مسجد تنكز الذي كان من أهم ولاة ونواب بلاد الشام عند السلطان الناصر محمد بن قلاون، فقد أعطاه لقب أمير أمراء الشام وكبيرهم، ويقع هذا المسجد إلى الغرب من قلعة دمشق ببضعة مئات من الأمتار. وفي سياق

(50) الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي الدمشقي ج1 ص 348 و359.
(51) النعيمي الدمشقي ـ الدارس في تاريخ المدارس ج1 ص 115.

هذه المساجد يمكن ذكر مسجد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون، الذي جاء هو الآخر تحفة رائعة من حيث تصميمه الرائع وقبته العظيمة وزخارفه الجميلة الدقيقة[52].

ورغم روعة هذه المساجد واتساعها، فإنها لم تصل إلى روعة وعظمة تلك المساجد التي شيدت في الفترات السابقة، كالمسجد الأموي بدمشق على سبيل المثال، ذلك لأن الفنيين المعماريين في هذا العصر على ما يبدو لم يكونوا في مستوى أولئك الذين أبدعوا في هندستهم للمساجد سابقة الذكر، وبخاصة في ميدان المآذن والقباب من حيث الإتساع والضخامة والإرتفاع.

بقي أن ننوه بالمنجزات الأيوبية والمملوكية في مجال بناء القلاع وترميمها، وفي ذلك نقول أن معظم القلاع، التي استخدمها الأيوبيون والمماليك في هذه الفترة، كانت قد بنيت في فترات سابقة باستثناء بعضها بني في أغلب الظن من أجل تنفيذ مهمة عسكرية بحتة، ويعود ذلك إلى أمرين هامين، الأول أهمية القلاع في هذا العصر في ميدان التركيز عليها لأن تكون قاعدة دائمة للحكام والسلاطين، سواء كان ذلك في عاصمة الدولة أو في مختلف النيابات العامة بمصر والشام، أما الثاني فيتجسد في أهمية القلاع على الصعيد العسكري، وبخاصة في أثناء الحروب الفرنجية في بلاد الشام ولفترة مئتي سنة، من نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ذلك لأن الفرنجة حرصوا على احتلال القلاع واتخذوها مواقع استقرار لهم في مناطق استراتيجية في بلاد الشام، ولا سيما في المناطق الساحلية التي ركزوا على احتلالها في سوريا وفلسطين والأردن ولبنان.

ففي حماه بوسط سوريا بنى الملك ناصر الدين محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب قلعة، قيل أنها تضاهي قلعة مدينة حلب، وما زالت بعض آثارها قائمة حتى الآن. وفي حمص بنى الملك المجاهد صاحب حمص قلعة في سنة 627هـ/1230م. وفي الرحبة الميادين اليوم إلى جنوبها على ضفة الفرات اليمنى بنى أسد الدين شيركوه خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي قلعة مهمة، وقد شغلت دوراً مهماً في أحداث تلك المنطقة. وفي وسط مدينة سلمية بمحافظة حماه، بنى الملك المظفر تقي الدين أبو الفتوح محمد بن الملك المنصور في سنة 620هـ/1223م قلعة، وقد درست برمتها ولم يبق منها سوى بعض أسوارها الخارجية. لكن القلعة الأهم كانت قلعة شميميس خارج مدينة سلمية على قمة جبل يعرف باسمها، وقد بناها السلطان المجاهد صاحب حمص في سنة 627هـ/1230م، وما زالت هذه القلعة حتى اليوم في حالة جيدة. وفي معرة النعمان بالقرب من حلب السورية، بنى سيف الدين علي بن أبي علي قلعة في هذه البلدة في سنة 631هـ/1233م. كما قام صلاح الدين الأيوبي بالسيطرة على القلعة التي تسمى باسمه اليوم في شرق مدينة اللاذقية بنحو 35 كم، ثم أمر بترميمها وتجديدها وإطلاق اسمه عليها، وتُعد من أهم القلاع في المنطقة الساحلية ببلاد الشام، وهي بحالة ممتازة، وتستقطب مجموعة كبيرة من السياح الأوروبيين وغيرهم.

(52) زكي محمد حسن ـ فنون الإسلام ص 73.

يضاف إلى كل ذلك أن المسؤولين في هذه الفترة، حرصوا على أن تكون القلاع بحالة ممتازة، ذلك لأنهم كانوا يميلون إلى الإستقرار فيها سواء كان ذلك في حالة الحرب أو السلم، لأنها على ما يبدو كانت أمينة أكثر من غيرها من المواقع العمرانية المتفرقة، بسبب أنها أُحيطت بحراسة مشددة، ولا أدل على ذلك من قلعة الجبل بالقاهرة، التي بقيت طوال عصر المماليك مقر إقامة السلاطين، الذين عملوا على توسيعها وتقسيمها بشكل يستوعب جميع مساعدي السلطان ومعاونيه، من نواب وإداريين ووزراء وخدم وحرس، إضافة إلى الحريم وبقية الحشم وبذلك يمكن أن نقول، أن القلاع الرئيسة وبخاصة في المدن الكبرى بمصر والشام،كالقاهرة ودمشق وحلب، كانت عبارة عن مدن صغيرة فيها كل ما تحتويه المدن الكبرى من أنشطة وممارسات عامة.

وكان مما أثار اهتمام حكام هذه الفترة في ميدان العمارة، هو التركيز على إقامة بعض القصور، التي اختلفت من حيث مهمتها العامة، فبعضها بل معظمها أقيم من أجل التمتع والنزهة، وبعضها أقيم ليكون بمثابة مقر للحاكم يمارس فيه كل وسائل الحكم من إدارة وتوجيه أمور الدولة أو النيابة. فمن النوع الأول يمكن أن نذكر قصر الأمير بشتاك الذي بناه خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، الذي زال معظمه باستثناء القاعة الكبرى وما حولها من غرف وكذلك بابه، وتمتاز هذه القاعة بزخارفها وتزييناتها البديعة، ثم قصر الأمير قوصون بالقرب من المدرسة المعروفة بمدرسة السلطان حسن بالقاهرة، الذي بني أيضاً في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وقصر الأمير طاز بالقاهرة بشارع السيوفية، ولم يبق من هذين القصرين سوى قاعاتهما الكبيرة.ومن النوع الثاني نذكر القصر الأبلق بدمشق.

المصادر والمراجع

(1) ـ ابن الأثير (علي بن محمد الشيباني) الكامل في التاريخ طبعة دار صادر بيروت 1965.
(2) ـ الإدريسي (محمد بن محمد) صفة المغرب وأرض مصر والأندلس (جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) مطبعة بريل ليدن 1964.
(3) ـ ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم الخزرجي) عيون الأبناء في طبقات الأطباء الطبعة الأولى ـ المطبعة البهية 1882 والطبعة الثانية بيروت 1982.
(4) ـ ابن أبي حجلة (شهاب الدين أحمد) سكردان السلطان ـ الطبعة الثانية 1957.
(5) ـ ابن أبي الصلت (أمية) الرسالة المصرية الطبعة الثانية مصر 1972.
(6) ـ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطبجي) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفه النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار طبعة دار صادر بيروت 1964.
(7) ـ ابن تغري بردي (يوسف الأتابكي) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شلتوت وجمال محمد محرز وإبراهيم طرخان طبعة القاهرة 1972.
(8) ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور بعد الوافي تحقيق أحمد نجاتي طبعة دار الكتب القاهرة 1956.
(9) ـ ابن جبير (محمد بن أحمد) رحلة ابن جبير دار صادر بيروت 1959.

(10) - ابن الجزري (محمد بن محمد) غاية النهاية في طبقة القراء مطبعة السعادة القاهرة 1932 و 1933.

(11) - ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة طبعة حيدر آباد الدكف 1348 هـ، 1349 هـ/1350 هـ,

(12) - ابن خلكان (أحمد بن محمد الأربلي) وفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس طبعة دار صادر بيروت 1970 - 1971.

(13) - ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر والمبتدأ والخبر طبعة بيروت بدون تاريخ.

(14) التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً تحقيق محمد بن تاويت الطبنجي طبعة القاهرة 1951.

(15) - ابن دحية - المطرب من أشعار أهل المغرب تحقيق مصطفى عوض الكريم الطبعة الأولى جامعة الخرطوم 1954.

(16) - الذهبي (محمد بن أحمد) العبر في خبر من غبر تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة الكويت 1963 و 1966.

(17) - ابن رافع السلامي (محمد) كتاب الوفيات تحقيق عبد الجبار زكار طبعة دمشق 1986.

(18) - سبط ابن الجوزي (يوسف بن قز أوغلي) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان طبعة حيدر آباد الركن 1951 و 1952.

(19) - السبكي (عبد الوهاب) طبقات الشافعية - الطبعة الثانية بيروت بدون تاريخ.

(20) - السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع طبعة القاهرة - مكتبة القدسي 1353 هـ ومكتبة المثنى 1354 هـ.

(21) - ابن سعيد المغربي - المغرب في حلى المغرب تحقيق شوقي ضيف المكتب التجاري القاهرة 1964.

(22) - الصفدي (صلاح بن أيبك) الوافي بالوفيات طبعات مختلفة لأجزاء الكتاب المتعددة.

(23) - الطرطوشي (محمد بن الوليد) سراج الملوك طبعة الإسكندرية 1289 هـ.

(24) - القفطي (علي بن يوسف) أخبار العلماء بأخبار الحكماء طبعة القاهرة 1326 هـ.

(25) - القلقشندي (احمد بن علي) صبح الأعشى في صناعة الإنشا طبعة وزارة الثقافة بمصر 1963.

(26) - ابن كثير (إسماعيل بن عمر) البداية والنهاية طبعة بيروت 1966.

(27) - الكتبي (محمد بن شاكر) فوات الوفيات تحقيق محي الدين عبد الحميد طبعة القاهرة 1951.

(28) - كرد علي (محمد) خطط الشام طبعة دمشق 1926 و 1928.

(29) - المقريزي (أحمد بن علي) السلوك لمعرفة دول الملوك - تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور طبعة القاهرة 1964 و 1970.

(30) - النعيمي الدمشقي (عبد القادر) الدارس في تاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني طبعة دمشق 1948.

(31) - النويري (أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الأرب في فنون الأدب طبعة القاهرة 1923.

المراجع أجنبية

(32) Iram Lapidus - Middle Eastern Cities University Of California . Press. 1969.

(33) George . E. Kirt. A Short History Of The Middle East From Rise Of Islam To Modern Times Ed- London, Without Date.